

الجوار المحير

"ما أطلبه ليس أن تقول لي ماذا تريد من السوريين، بل ما يريدونه هم منا. نحن نعرف ماذا تريد منهم، ولا ندرک ماذا يتوخون منا؟ السياسيون اللبنانيون كالشيخ بيار(الجميل) يقولون لي ما يريدون من سوريا. لكن ماذا تريد هي؟".

أراد فؤاد شهاب إعادة بناء السياسة الخارجية للبنان على نحو مغاير لما شهده عهد كميل شمعون. حفلت تلك بنزاعات خارجية مع مصر وسوريا، وداخلية مع معارضيه في السلطة وفي الشارع، بمقدار ما تبنت خيارات ديبلوماسية ذهبت بلبنان إلى أحلاف ومحاور إقليمية ودولية أغضبت فريقاً من اللبنانيين، إلا أنها استقطبت إلى جانبه فريقاً آخر برّر للرئيس خياراته ودافع عنها. آل ذلك إلى حرب أهلية لأشهر قليلة تورّطت فيها مصر وسوريا. بدا فؤاد شهاب معنياً بسلوك ديبلوماسية لبنانية واقعية، جديدة، حيال العالم العربي تُخرج لبنان من أي انحياز إلى محاور الصراعات المحيطة به¹. ولأن تقدّمه وتطوره وازدهاره يمكنه من الاضطلاع بدوره في محيطه العربي، يؤمن لبنان في رأي الرئيس "كل الإيمان بواجباته كعضو مخلص في الأسرة العربية، وقد ندبته أسباب كثيرة لأن يكون دائم التفكير والسعي في منعة العرب وقوتهم ووحدة صفّهم. وقد علّمته الأحداث أن كل ما يوهن الوشائج في ما بينهم من شأنه أن يعرقل ازدهارهم، ويعرّج طمأنينتهم، ويؤذي مستقبلهم. وبدافع من مشاعره ومصالحه، كان وسيظلّ الحريص دائماً على مشاعرهم ومصالحهم جميعاً"².

تضامن مع جمال عبد الناصر من دون التخلي عن ديبلوماسية تقليدية اتبعتها لبنان في علاقاته مع الدول الكبرى كالولايات المتحدة الأميركية وفرنسا والفايكان، أخذاً بروابط ثقافية واقتصادية عميقة وقديمة، وتعلّق بقيم روحية وإنسانية مشتركة تتصل بالإيمان والحرّيات والديموقراطية وحقوق الإنسان والإستقلال، والإفتتاح على الغرب القريب والبعيد. لم يلتق أياً من رؤساء هذه الدول من معاصريه، وكانوا قادة تاريخيين كجون كينيدي³ وشارل ديغول والبابا يوحنا الثالث والعشرين⁴ ثم البابا بولس السادس عام 1963.

لكن منزلة خاصة في قلب الرئيس وُضعت فيها الدولتان الأخيرتان: إعجاب خاص بفرنسا استمدته من نشأته الأولى في مدرسة أدارها رهبان فرنسيون أرسوا فيه جذور ثقافة فرنسية. فلم يلامس الثقافة الإنكليزية ولا نمط حياتها وسلوكها ولا ألقن لغتها. خدم طويلاً في الجيش الفرنسي، فإذا به رئيساً يعوّل على التقنية والأسلوب الفرنسيين في إدارة الحكم، ويحوظ نفسه بمعاونين ذوي الثقافة الفرنسية. تولّد ذلك أيضاً من تأثره العميق بشارل ديغول. عرفه للمرة الأولى بين عامي 1929 و1931 عندما كان القومندان الفرنسي، في أول إقامة له في لبنان، رئيساً للشعبة الثالثة في القيادة العليا للجيش

¹ - لا تولى الخطب الرسمية التي ألقاها الرئيس فؤاد شهاب، إبان ولايته، أهمية لافتة إلى علاقات لبنان بالدول العربية. فلا يأتي على ذكر هذا الجانب إلا في عدد قليل منها، وفي عبارات قصيرة ومقتضبة ذات مفاهيم ومبادئ عامة تقتصر على رغبة لبنان في إرساء صلات حسن جوار مع جيرانه العرب والتعاون وإياهم. يعبر ذلك أيضاً عن تجاهل رئيس الجمهورية توجيه انتباهه إلى مشكلة عقائدية رافقت سجالاتها المسيحية والمتنافرة، في عقود الأربعينات والخمسينات حتى منتصف الستينات من القرن الفائت، حيال العروبة وموقف لبنان منها والتزامه القضايا المصرية العربية في ضوء انقسامات واسعة في الرأي تجادبت القوى السياسية المحلية. لم ينضم إليها، وأبقى اهتمامه بها هامشياً.

² - الرئيس فؤاد شهاب، **مجموعة خطب**، خطاب 21 تشرين الثاني 1961، ص 85 و86.

³ - زار نائب الرئيس الأميركي ليندون جونسون وزوجته لبنان لساعات. استقبله الرئيس اللبناني في مكتبه في مقرّ الرئاسة في صربا في 23 آب 1962. لدى إرضاض الاجتماع خرجا من المكتب. واكب الرئيس زائرته بضع خطوات حتى منتصف البهو الأرضي ثم توقف وتراجع، تاركاً لمسؤولي البروتوكول مرافقة نائب الرئيس الأميركي حتى المدخل الخارجي. وبرّر على الأثر عدم مواكبته زائرته بأنه رئيس للدولة بينما ليندون جونسون هو نائب للرئيس، وأن كرامة المنصب توجب عليه أن لا يرافق إلى المدخل الخارجي إلا نظيره، رئيس الدولة، الذي يزوره (مقابلة خاصة مع العميد ميشال ناصيف).

⁴ - في 21 تشرين الثاني 1958، وجّه سفير لبنان لدى الفاتيكان جوزف حروفش إلى رئيس الجمهورية برقية حملت رقم 205 (241 - 784) تضمنت انطباعات لمسها من مسؤولين كبار في البلاط الروماني، وأصمّهم أمين سرّ الدولة ووزير الخارجية الكاردينال دومينيكو تارديني، عن المشاركة الرسمية للبنان في احتفال إعتلاء يوحنا الثالث والعشرين السدة البابوية، والتقدير الحار الذي لقيته هذه المشاركة، "فوقنا لم يكن بالتأكيد الأكبر عدداً. لكن من بين 58 دولة كنا الوحيدين مع ألمانيا وبلجيكا والبرازيل والصين وإسبانيا وإيطاليا والوكسمبورج والبلاد المنخفضة والبرتغال تمثلنا بوزير الخارجية (الرئيس حسين العويني). وأعرف أن هذا الأمر قد أخذ في الإعتبار خصوصاً وأن فخامتكم اخترت الوزير حتى يمثلك شخصياً ويتّراس الوفد اللبناني. ليس لأنه عضو في الحكومة الجديدة، وهو الوزير المكلف علاقاتنا مع الكرسي الرسولي، ولكن بالذات - ولنقل ذلك بوضوح - لأنه شخصية إسلامية" (من المحفوظات الخاصة للرئيس فؤاد شهاب).

⁵. ثم التقيا مجدداً خلال

الحرب العالمية الثانية في اجتماعات عمل مع ضباط الأركان الفرنسية في آب 1942. بعد ذلك الوقت لم يجتمعا. إبان ولاية فؤاد شهاب أرسيت علاقات عمل وتعاون بين البلدين⁶. متمسكاً بموقع لبنان جسر اتصال بين الشرق والغرب، لم يُبدِ رئيس الجمهورية تأييداً لموقف جمال عبدالناصر قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بسبب أزمتها مع الجزائر، فتجنّب لبنان مجارة دول عربية في خطوة مماثلة.

كانت العلاقة الحارة بباريس، ببعديها السياسي والثقافي، مؤشراً إلى إبدال مرجعية دولية بأخرى. بعدما لاذ كميل شمعون بالدبلوماسية الأميركية ورسم خيارات السياسة الخارجية للبنان متأثراً بدعم قوي قدّمته له إدارة دوايت أيزنهاور، اختار فؤاد شهاب نظيره الجنرال الرئيس والدبلوماسية الفرنسية للحصول على دعم فرنسي ودولي للبنان. بذلك أعاد إلى فرنسا دورها السياسي التاريخي في لبنان بعد انكفائها التدريجي على أثر اعترافها باستقلاله عام 1943، ثم انسحاب الجيش الفرنسي من كل الأراضي اللبنانية عام 1946.

بدوره الفاتيكان اضطلع بدور مهم في حياة الرئيس، استمد جانباً رئيسياً منه من بنوّته ككاثوليكي متديّن للكرسي الرسولي في عهد حبره الذي لم يكن قد التقاه مرة. إلا أن الدوائر الرسمية في الفاتيكان حفظت للرئيس اللبناني مبادرة خاصة حيالها حملت أكثر من مغزى سياسي وأخلاقي. استعانت به وسيطاً لدى السلطات العراقية لوقف تنفيذ حكم بالإعدام صدر، في تشرين الأول 1963، في حق الرئيس العام للرهبان الكلدانيين للقديس أورميسداس في العراق الأب رفايل شوريز. بعد جهد بذله فؤاد شهاب لدى الحكومة العراقية، معوّلاً على صداقته مع جمال عبدالناصر، أنقذ الراهب من موت محقق بحصول الأخير على عفو⁷. كان قد رعى علاقات لبنان بالكرسي الرسولي، على امتداد ولاية

⁵ - شهادة الرئيس فؤاد شهاب في الرئيس شارل ديغول مؤرخة تموز 1972، في مقال طويل كتبه عنه بناء على طلب مؤسسة شارل ديغول نشرته في كتاب خاص إحياء لذكرى غياب الرئيس الفرنسي (من المحفوظات الخاصة للرئيس فؤاد شهاب).

⁶ - يروي الشيخ ميشال بشارة الخوري أن الرئيس فؤاد شهاب ناط به عام 1964 مهمة في باريس لدى الرئيس شارل ديغول لحل مشكلة أفلقت الرئيس، هي اكتشافه أن ثمة محاولة بيع للمؤسسات والمصالح الفرنسية في لبنان لتمول كبير وخطير وصفه الرئيس لموفده بأنه "فلسطيني مغامر" يريد شراء المصالح والمؤسسات الفرنسية في لبنان، من بينها Radio Orient وشركة طيران Air France ومنشآت سياحية. وطلب من ميشال بشارة الخوري الإستفسار من الرئيس الفرنسي عن دوافع بيع هذه المؤسسات والمصالح "لهذا الفلسطيني المغامر الذي ربما خرب اقتصادنا". وطلب منه الحصول على جواب شاف والحؤول دون تنفيذ هذه الخطة. فور دخوله عليه في قصر الإليزيه، بادره الرئيس الفرنسي من خلف مكتبه بالقول: "الرئيس شهاب صديقي، وكنا رفاق مرحلة واحدة". وأضاف: "أنا أعرف ابن من أنت. يوماً ما ستندمون على سحبكم الفرنسيين من لبنان". أجابه زائره: "نحن لم نطرد الفرنسيين، وإنما الإستعمار كان قد وصل إلى نهايته في كل أنحاء العالم، وكانت للإنتداب الفرنسي مدة معيّنة وأنتم أعطيتم لبنان الإستقلال من دون أن يحصل بيننا دم. وقد حافظنا على المؤسسات والمدارس الفرنسية، وكذلك على الثقافة الفرنسية. وأنا الذي دونت المحضر بين والدي (الرئيس بشارة الخوري) والجنرال كاترو عندما خرج من سجن راسيا وطلب منه الجنرال كاترو المحافظة على المؤسسات الفرنسية في لبنان ولاسيما منها الثقافية".

في حصيصة المقابلة طمان الرئيس الفرنسي الموفد اللبناني إلى تجميد بيع المؤسسات والمصالح هذه. يتقن الأخير من وزير الخارجية موريس كوف دومورفيل ومسؤولين فرنسيين آخرين أن الموافقة على بيعها لم تنطو على غاية سياسية، بل سعياً إلى توظيف أموالها في قطاع النفط في الجزائر. في وقت لاحق عين الرئيس شارل ديغول موفداً خاصاً هو كابلان، زار لبنان حاملاً رسالة خاصة إلى الرئيس فؤاد شهاب تؤكد الموقف الذي كان ميشال بشارة الخوري قد تبّلع في قصر الإليزيه. (مقابلة خاصة).

⁷ - في 8 تشرين الثاني 1963 كتب السفير البابوي إيجانو ريغي - لامبريني إلى رئيس الجمهورية ناقلاً إليه مضمون رسالة تلقاها من سكرتير الدولة لدى الكرسي الرسولي الكاردينال أمليتيو سيكونياتي، وكان تسلمها القائم أعمال السفارة المونسيور بيارلوجي سارتوريللي، تتصل بقضية الأب رفايل شوريز. وأشادت بـ"العفوية التي أظهرها اهتمام فخامتكم وكان مبعث كثير من الرضى، وكذلك سرعة تدخلكم وفاعليته. وبفضلهما أمكن تفادي تنفيذ حكم الإعدام. واستجابة للتعليمات الواردة في هذه الرسالة، أسارع إلى التقدّم من فخامتكم بمشاعر شكر الكرسي الرسولي لكم (...)" (من المحفوظات الخاصة للرئيس فؤاد شهاب).

على امتداد ولايته لم تنقطع المراسلات المباشرة بين رئيس الجمهورية والسفارة اللبنانية في الفاتيكان بغية استمراج الأخير رأيه في كثير من المواضيع، كان فؤاد شهاب يعتقد بحاجته إلى تشاور كهذا. وشأن ما وجده في فرنسا والأمم المتحدة، عدّ علاقة بلبنان بالكرسي الرسولي - المرجعية الأولى للكاثوليك في العالم - مصدر حماية لاستقلال لبنان وتقدير لتعايش طوائفه. لم تُعنّ العلاقة بدوائر الفاتيكان بالكنيسة المارونية فحسب، ولا بعلاقات ثنائية بين دولتين صغيرتين أيضاً، وإنما بإضفاء حرارة الإيمان على الإتصال الديبلوماسي. ولم يكن الرئيس يتردّد في طرح أسئلة على معاوني البابا عن الوضع في الشرق الأدنى وضرورة مساعدة مسيحيي الشرق، والإستقرار الضروري بين دول المنطقة. تنبّه كذلك إلى وجود إسرائيل الذي أوقع الشرق الأدنى في اضطراب طويل ودائم، وسأل الكرسي الرسولي مراراً دوره حيال ذلك واستعداده للإعتراف بالدولة العبرية. كان الجواب أن "دولة إسرائيل موجودة لسنوات خلت، وهي عضو في الأمم المتحدة. خاضت حربين وأبرمت معاهدات. في ظلّ هذا الوضع لم يعد اعتراف الكرسي الرسولي ذا جدوى، ممّا يفترض أنه لا يزال يتجاهل وجودها. وفي النتيجة، لم يعد لازماً اعتراف الكرسي الرسولي أو عدم اعترافه بإسرائيل في المعنى الديبلوماسي العادي للكلمة. وهذا لا ينفي، في الواقع، أنه - ومن دون أن يكون اتخذ أي إجراء واضح - يعترف بإسرائيل لأن الموفد الرسولي في القدس يتعامل مع السلطات الإسرائيلية، وأنه يوم تتويج البابا يوحنا الثالث والعشرين تمثّلت إسرائيل بسفير، وأن هذا السفير مُنح وساماً شأنه ممثلي الدول الأخرى. وفي حقيقة الأمر فإن المشكلة الوحيدة المطروحة هي العلاقات الديبلوماسية بين تل أبيب والفاتيكان. من وجهة النظر هذه، لم يتغيّر موقف الكرسي الرسولي. أي أن من غير الوارد في الوقت الحاضر إحداث تغيير في الوضع القائم. إنه الجواب الذي لا يزال يعطى لنا منذ سنوات"⁸.

من خلال صداقة وثيقة بالزعيمين المصري والفرنسي، وجد الرئيس اللبناني أنه ضمّن مظلة حماية للبنان من أي تدخّل خارجي من شأنه مسّ استقلاله وسيادته، عارفاً بعمق جنوح اللبنانيين المسيحيين والمسلمين إلى النزعتين السياسيّتين اللتين يجسّدهما هذان الزعيمان في العالمين العربي والغربي. ناهيك بتسليمه بأن الإستقلال والسيادة يضمنهما انتماء لبنان إلى الأمم المتحدة⁹. كان يعوزه كي يُبرز هذا الخيار، في معظم التعهّدات التي قطعتها حكومات عهده، طرح مبادئ الديبلوماسية اللبنانية حيال المشكلات الدولية، وموقع لبنان منها انطلاقاً من "سياستنا المبنية على أسس الصداقة والإحترام والتكافؤ في نطاق شرعة الأمم المتحدة التي ننتقّد بها نصّاً وروحاً، مؤكدين أننا نراعي في المجالات الدولية ما يفرضه علينا من مواقف انتهجنا سياسة الحياد وعدم الإنحياز"¹⁰.

ويكشف الأب يعقوب سقيم من حديث خاص معه في مرحلة الإعتزال، أن الرئيس السابق أسرّ إليه بتدخّله لدى الزعيم المصري لإنقاذ الراهب الكلداني (مقابلة خاصة).

⁸ - رسالة سفير لبنان لدى الفاتيكان جوزف حرفوش إلى الرئيس فؤاد شهاب في 14 أيلول 1960 حملت رقم 991، يورد فيها نتائج مقابلاته أمين سرّ الدولة في الكرسي الرسولي الكاردينال دومينيكو تارديني (من المحفوظات الخاصة للرئيس فؤاد شهاب).

⁹ - نظر الرئيس فؤاد شهاب باهتمام بالغ إلى دوري هاتين المرجعيتين العربية والدولية اللتين كان لبنان عضواً مؤسساً فيهما. كان من بين الدول العربية الست التي وقعت ميثاق جامعة الدول العربية في القاهرة في 22 آذار 1945، ومن الدول الـ49 التي وقعت في مؤتمر سان فرانسيسكو في 26 حزيران 1945 ميثاق الأمم المتحدة. واعتبر الرئيس باستمرار أن موقع لبنان ودوره في جامعة الدول العربية والأمم المتحدة يكفلان سيادته واستقلاله ويضعان حداً لأطماع الآخرين في أرضه. من جامعة الدول العربية حصل على اعتراف مطلق من أعضائها، ومن بينهم سوريا، بسيادته واستقلاله ووحدة أراضيه وحدوده الدولية، ومن الأمم المتحدة حصل على اعتراف مماثل أهله كي يطالب باستقلال ناجز وسيادة غير منقوصة أفضيا في نهاية السنة التالية، في 31 كانون الأول 1946، إلى انسحاب آخر جندي أجنبي من أراضيه.

¹⁰ - من البيان الوزاري لحكومة الرئيس رشيد كرامي أمام مجلس النواب في جلسة 16 تشرين الثاني 1961 (يوسف قرما خوري، البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب، ص 625).

في استقباله التقليدي، مطلع كل سنة جديدة، رؤساء البعثات الدبلوماسية، كان رئيس الجمهورية يؤكد على الحاجة إلى إرساء سلام عالمي وتعاون وثيق بين الدول وانطلاق الإنسانية إلى حياة أفضل للشعوب وتحسين ظروف معيشتها وتحقيق ازدهارها وانفتاحها، بعضاً على بعض، وضمن استقرارها في سبيل مستقبل آمن للبشرية. كانت تلك، بالنسبة إليه، المهمة الرئيسية للأمم المتحدة التي يشكل لبنان - كأحد مؤسسيها - بقدراته وإمكاناته ودوره دعامة لها. يحدوه إلى ذلك تشبّثه بإعلان عناصر السياسة الخارجية لهذا البلد، الكثير التآثر بمحيطه العربي القريب والمشكلات الدولية، فلا تحيله هذه ولا ذاك طرفاً في نزاعات إقليمية ودولية، ولا يؤلب دولة على أخرى، متمسكاً دائماً بإبراز "بلادنا الأمانة لسياستها في الحياد وعدم التدخل، وتقاليدنا في الحرية والضيافة، المصممة فوق كل شيء على صون استقلالها وكرامتها مع المحافظة على صداقاتها واحترام التزاماتها. وقد استطاعت بعون الله، وبحسن تفهم أصدقائها الكثيرين وتأييدهم المعنوي، أن تتغلب على الصعوبات، وأن تحتفظ بوحدتها الوطنية مكيئة أكثر من أي وقت مضى، وتواصل تحقيق منهاجها الواسع في الإصلاح وفي الإنماء الاقتصادي والاجتماعي"¹¹.

ستؤكد هذا المنحى كذلك البيانات الوزارية لحكومات عهده التي لا يتردد بعضها في استيحاء عبارات النداء الذي خاطب فيه فؤاد شهاب، رئيساً منتخباً للجمهورية في 4 آب 1958، اللبنانيين متحدّثاً عن "سياسة لبنانية خالصة وعربية ناصعة وخارجية حرّة". ولا يلبث أن يستعيدنا البيان الوزاري لحكومة صائب سلام أمام مجلس النواب عام 1960، إذ يعزو هذه المبادئ إلى "ميثاقنا الوطني الذي رسمها لنا (...) والذي يبقى شرعة غير مكتوبة لوطننا، ضامنة كيانه ومجده وهناك شعبه"¹². فالسياسة الخارجية التي تطابق، في رأي فؤاد شهاب، السياسة الداخلية "تنبع من واقع لبنان ومحيطه، وهي التي تحدّدت خطوطها الكبرى في مطلع عهد الإستقلال عام 1943. رائدنا قبل كل شيء المحافظة على استقلال لبنان وكيانه وسيادته ودستوره، والدفاع عنه في كل الظروف والأحوال، وتجاه أي كان. ورائدنا أن تظلّ علاقاتنا مع الدول العربية الشقيقة علاقة أخوة وود صافيين، وان نتصرّف بإزاء العرب جميعاً تصرّف الحريص على عزّتهم وازدهارهم ووحدة صفهم، الحامل رسالة السلام والمحبة بينهم، المتعاون معهم في كل الميادين تعاوناً نزيهاً صادقاً، والعامل بجدّ وبلا توان على توثيق كل هذه الروابط على صعيد العاطفة والمصلحة، والساعي دوماً إلى تعزيز الجامعة وميثاقها، والمتضامن مع أشقائه العرب في قضاياهم الكبرى ولاسيما التحررية والإستقلالية منها وفي طليعتها قضية فلسطين"¹³.

كان الإلتزام الوحيد الذي قدّمه فؤاد شهاب لجمال عبدالناصر، في اجتماع الخيمة، عدم انضمام لبنان إلى محاور غربية وعربية مناوئة، وعدم الوقوف ضد مصر في اجتماعات جامعة الدول العربية. قدر الزعيم المصري موقفه هذا، وتفهم خصوصية الوضع اللبناني ودقة التركيبة السياسية والطائفية وحساسيتها، وبقي على تواصل مع نظيره اللبناني. كان يعرف ما ينبغي طلبه منه وما يقتضي أن لا يربكه به، أخذاً في الإعتبار الإمكانيات اللبنانية توصلاً إلى سياسة حكيمة تدار من خلالها علاقات البلدين. تبعاً لذلك احترم على امتداد حقبة تزعمه جمهورية الوحدة (1958 - 1961)، ثم رئيساً لمصر، اتفاه مع الرئيس اللبناني انطلاقاً من المبادئ الثلاثة التي تضمّنها البيان المشترك لاجتماعهما: اعتراف علني باستقلال لبنان وسيادته، دعم التضامن العربي في نطاق ميثاق الجامعة العربية والأمم المتحدة، تعاون ثنائي بين البلدين في شتى الميادين يراعي المصالح المتبادلة¹⁴.

11 - الرئيس فؤاد شهاب، مجموعة خطب، خطاب 31 كانون الأول 1963، ص 135.

12 - من البيان الوزاري لحكومة الرئيس صائب سلام أمام مجلس النواب في جلسة 18 آب 1960 (يوسف قزما خوري، البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب، ص 566).

13 - المصدر نفسه، ص 566.

14 - مقابلة خاصة مع الوزير فؤاد بطرس.

وفي مقابل أن لا يتدخل جمال عبدالناصر في الشؤون اللبنانية، ولا يخلّ بالتوازنات الداخلية التي تدير هذا البلد، ولا في الطريقة التي يحكم فيها الرئيس اللبناني، تعهد له الأخير بالتنسيق الدبلوماسي معه للحوار دون أي مؤامرة عربية أو دولية أو إساءة تستهدف الجمهورية العربية المتحدة، أو نظامها، أو تتعرض لرئيسها. كان يعتقد أن من المتعذر عليه حكم لبنان من دون وفاق بين اللبنانيين، وتواصل مع المسلمين الكثريين التأثير بالناصرية وزعيمها. فخلص إلى أن سياسة مناهضة للناصرية من شأنها تهديد الاستقرار والوحدة الوطنية. كان الزعيم المصري قد أرسل إشارات مهمة إلى نظيره اللبناني عن سعيه إلى مؤازرته في تحقيق استقرار بلده، هي أوامره إلى معاونيه والإستخبارات المصرية في القاهرة والسفارة في بيروت على السواء: "إياكم، إياكم، إياكم أن يقوم أحد ما منكم بعمل أممي أو سواه يضرّ بالرئيس شهاب أو يزعجه، أو يؤذيه في شعوره وموقعه كرئيس لبنان، أو من دون علمه وموافقته الشخصية"¹⁵.

وجد فؤاد شهاب أيضاً ضرورة رسم دبلوماسية لبقة تمكن لبنان من التمتع بالحرية اللازمة في توجيه مصالحه الرئيسية والحيوية والتوفيق بينها، وبين بعض علاقاته الخارجية، حتى في ظلّ تعارض ظاهر بين تلك وهذه. عدّ الدور اللبناني صاحب مهمة في السعي إلى "إعادة الإنسجام والاتصال إلى بلدان العالم العربي، وإقامة الإستقرار فيه والطمأنينة والسلم على أسس الحق والعدل. نحرص ونعمل بتفكير منفتح عالمي، مماش لروح العصر، على أن يقوم نوع جديد من التعامل والنفع المتبادل بين الأمم، مبني على التفاهم والإحترام والكرامة"¹⁶.

في العلاقات العربية والغربية "تأتي مصلحة لبنان في الدرجة الأولى. وأولويات مصلحة لبنان، كما أفهمها، هي المحافظة على سيادة الكيان الوطني اللبناني واستقلاله، وعلى وحدة أبنائه الوطنية. وتأتي بعد ذلك المصلحة العربية. فإذا أجمعت الدول العربية على أمر، فإن لبنان ملزم التزامه. أما إذا اختلفت وانقسم الصف العربي، فإن مصلحة لبنان في أن لا ينحاز إلى هذا الفريق أو ذاك. بل أن يسعى إلى التقريب بين الأطراف العرب إذا استطاع. أما مسابرتي مصر وعبدالناصر وتعاوني الوثيق معه، فهو ليس انحيازاً عاطفياً أو لمصلحة شخصية أو إعلان خصومة للأطراف العرب الآخرين المختلفين معه، بل لأن عبدالناصر كرئيس للجمهورية العربية المتحدة وكزعيم قومي تتعلق به الجماهير في كل البلدان العربية، ونصف الشعب اللبناني على الأقل، يستطيع التأثير في لبنان على نحو أقوى بكثير مما تستطيعه الدولة اللبنانية في مصر أو على الشعب المصري (...). لم يطلب عبدالناصر مني في لقاء الخيمة عند الحدود سوى التعاون الصادق والصريح بين بلدينا. لا هو يتدخل مباشرة في الشؤون اللبنانية، ولا نحن نسمح لأعدائه وأخصامه باتخاذ لبنان مركزاً للتأمر على الجمهورية العربية المتحدة، أو نثب سياسة منحازة إلى أعدائه وأخصامه (...)"¹⁷.

بذلك رسم المعادلة الحساسة التي توازن بين استقرار الداخل والمقاربة الدقيقة للتطورات الإقليمية. نظرت هذه جعلته يقول يوماً لأحد معاونيه القريبيين فؤاد بطرس إن عليه أن يتأهب مستقبلاً كي يصير وزيراً للخارجية.

سأله عن مقصده من غير أن يكون قد خبرَ بعد في الحكم العلاقات الدولية، وكان قد تمرّس حتى ذلك الوقت في حقائب التربية الوطنية والفنون الجميلة والتصميم العام والعدل في حكومتي رشيد كرامي عامي 1959 و1961. ردّ الرئيس: "لا تستطيع أن تكون وزير خارجية ناجحاً ما لم تكن قبلاً وزيراً في وزارات تجعلك تحوط بالوضع الداخلي برمته، وتطلع على المشكلات المحلية. إن الدخول إلى

¹⁵ - مقابلة خاصة مع اللواء سامي شرف.

¹⁶ - الرئيس فؤاد شهاب، مجموعة خطب، خطاب 5 شباط 1960، ص 42.

¹⁷ - كلام نقله الدكتور باسم الجسر عن الرئيس فؤاد شهاب في معرض تحديده إطار السياسة العربية للبنان، النهار، 25 نيسان 2001.

عالم الدبلوماسية يوجب الإلمام بالحال اللبنانية من أجل ملاءمة الإستقرار الداخلي بالتطورات الخارجية¹⁸.

على أن الترابط الوثيق بين السياستين الداخلية والخارجية استمد جذوره من دستورية بشارة الخوري الذي كان أرسى، على امتداد عهده الطويل (1943 - 1952)، دبلوماسية منفتحة ومتعاونة مع الدول العربية والأجنبية مثلت انعكاساً لخيارات لبنانية داخلية غير متناقضة، وإن جُبهت هذه بتباين اقتضته طبيعة العلاقات السياسية اللبنانية بين أفرقاء تتجاذبهم مواقع مختلفة. اتبعت السياسة الخارجية لبشارة الخوري تفاهماً كاملاً بين رئيسي الجمهورية والحكومة وتضامناً الوزراء، من دون أن تصطدم بمجلس النواب، وقد شكّلت الغالبية النيابية الموالية مظلة حماية خيارات السياسة الخارجية. وهكذا لم تقع السياسة الخارجية للرئيس السابق والحكومات المتعاقبة في عهده في فخ انقسام وطني من حولها، مراعيًا على وجه أخص علاقات متوازنة مع الدول العربية، ولاسيما تلك التي لم ينقطع وإياها التعاون والحوار لتفادي أزمات طارئة¹⁹.

نجح فؤاد شهاب في المحافظة على الخصوصية اللبنانية التي جعلته يكتفي بعلاقات عادية مع الإتحاد السوفياتي، في وقت كان الأخير على علاقة ممتازة بالزعيم المصري. لم يحل ذلك دون مثابرة الإستخبارات العسكرية اللبنانية على مراقبة أعضاء في الحزب الشيوعي اللبناني، المحظورة قانوناً نشاطاته السياسية، والتعامل مع هؤلاء على أنهم أعداء عقائديون للنظام. ناهيك بأن الشعبة الثانية قاربت دور الإتحاد السوفياتي في لبنان على أنه سلبي، ويرمي إلى التدخل في الشؤون اللبنانية نظراً إلى موالة لبنان الغرب.

كانت ثمّة نظرة عقائدية إلى الإتحاد السوفياتي اجتمع على مناوأتها بشارة الخوري وكميل شمعون، وشاركهما فؤاد شهاب إياها في ما بعد، هي أنه رأس النظام الشيوعي في العالم، كما أن مذهبه المتشدّد في الإشتراكية في توجيه الإقتصاد لا قبّل للبنان على تبنيّه. أيد الرئيس، كما سلفاه، العدالة في الإقتصاد المناسب للبنان الذي هو ليبرالي حرّ تتدخل فيه الدولة اللبنانية مقدار ما ينحو إلى الجشع والإحتكار والتعرّض لمعيشة اللبنانيين. أضف أن لبنان يضع نفسه في النظام الحرّ والديموقراطي الذي يقود العالم الغربي. ما كان يعني بشارة الخوري وفؤاد شهاب خصوصاً في هذه المسألة، أن الدولة العظمى، بحكم نظامها العقائدي هذا، ملحدة. كانا أكثر التصاقاً بالإيمان والدين وعبادة الله

18 - مقابلة خاصة مع الوزير فؤاد بطرس.

19 - كان أبرز ممثل للسياسة الخارجية اللبنانية في عهد الرئيس بشارة الخوري، وزراء الخارجية المتعاقبون: سليم تولا (1943 - 1945)، حميد فرنجيه (1945 - 1946) و(1947 - 1949)، فيليب تولا (1946) و(1949 - 1951). ولئن أدّت السياسة الخارجية للرئيس كميل شمعون إلى انحياز لبنان إلى محاور إقليمية ودولية تسببت بشرخ وطني، أبرزَ فيليب تولا مقومات ما اعتبره "سياسة استمرار البقاء" للبنان التي تقرن الحصول على الإستقلال بتوفير ضمانات تصونه. ورسم النموذج الأمثل للدبلوماسية اللبنانية مع الخارج التي سبقتها عهد الرئيس فؤاد شهاب في ما بعد، وكان فيليب تولا وزيراً في حكوماته السبع. في محاضرة ألقاها في الندوة اللبنانية في 16 كانون الثاني 1956، قال: "سياسة استمرار البقاء لا بد من أن تكون ذات شقين، سياسة خارجية وسياسة داخلية (...). والسياسة الخارجية في جميع دول الأرض مرتبطة إلى حد بعيد بالسياسة الداخلية. فمن البديهي أن لا تخطيط في الخارج من دون انسجام في الداخل. ولا قوة في الخارج من دون قوة في الداخل. ولا احترام لدولة في الخارج من دون التقاف الأمة حولها في الداخل. ولا وزن للناطق باسم الدولة أو ممثلها في أي قضية خارجية إن لم يكن الحكم مستقرًا في الداخل والشعب راضياً عنه" (عهد الندوة اللبنانية، دار النهار للنشر، بيروت، 1997، ص 296).

سرعان ما عبّر عن هذه القواعد إطاراً للسياسة الخارجية في عهد الرئيس فؤاد شهاب، في بيان أدلى به أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب في 10 آب 1962، بإحداثه ترابطاً وثيقاً بين الأوضاع الداخلية والسياسة الخارجية، معتبراً أن "طريقة ممارسة السياسة الخارجية لا بد من أن تنعكس في الظروف المختلفة على وحدة الرأي في الداخل. هذا الواقع لا تستطيع الحكومات تبديله، بل مراعاته دائماً والتقيّد به". وعزا القواعد تلك إلى التقيد بالميثاق الوطني، الضامن للإستقرار والتضامن الداخلي. وقال: "على الصعيد الدولي لا يُلزم لبنان نفسه إلا بشرعة الأمم المتحدة. فلا قواعد ولا أحلاف ولا امتياز لدولة على أخرى، ولا انتساب إلى كتلة من الدول. بل تعاون مع الجميع على أساس الإحترام والمصلحة المتبادلين. وعلى الصعيد العربي يُلزم لبنان نفسه بميثاق جامعة الدول العربية، ويسعى إلى تعزيزها وزيادة فاعليتها. كما يلزم نفسه بميثاق الدفاع العربي المشترك والتعاون الإقتصادي (...). يعمل باستمرار على خلق جوٍّ من الثقة والإطمئنان بين الدول العربية الشقيقة، واستبعاد أسباب الفرقة والشقاق، وتقريب وجهات النظر وتسوية الخلافات. ويحرص على عدم التدخل في شؤون الغير، ويحترم مشيئة كل شعب في ما يرضيه لبلاده من مصير أو نظام حكم، ويطلب أن يحترم الغير استقلاله وسيادته ونظام حكمه ولا يتدخل في شؤونه الداخلية. ويتضامن مع العرب جميعهم في قضاياهم الكبرى وعلى رأسها قضية فلسطين" (النهار، 11 آب 1962).

والفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية التي بشرت بها المسيحية. لم يُفاجئ فؤاد شهاب الإتحاد السوفياتي، ولم يجعل الدولة الصغيرة تستقرّه. لكنه لم يحلّه بلداً حليفاً.

- 2 -

في موازاة علاقات متكافئة مع الدول العربية، طبّعت العلاقة بجمال عبدالناصر ميزة خاصة عندما كان يترأس مصر وسوريا، واستمرت بعد انفصال سوريا عن جمهورية الوحدة. مذ ذاك راحت تتولد حتى نهاية ولاية الرئيس اللبناني عام 1964 علاقة غير مستقرة بقيادة الانفصال، ثم بقيادة حزب البعث بعد استيلائهم على حكم سوريا في انقلاب عسكري في 8 آذار 1963، تراوحت بين الإستفزاز والتخاطب النزق، والتهديد بإغلاق الحدود البرية ومنع عبور الأفراد وحركة التجارة والزراعة وانتقال البضائع. تردّت العلاقة بين أنظمة الانقلابات العسكرية السورية المتعاقبة والرئيس المصري الذي ظلّ يجد في نظيره اللبناني حليفاً مؤيداً له، وأتاح له ذلك مقاومة الحملات الإعلامية التي كانت دمشق تخوضها عليه عبر لبنان، أو القيام بنشاطات مناوئة للناصرية. أربك هذا النزاع فؤاد شهاب، وكان لا يزال يحافظ على سياسة خارجية محايدة بين الدول العربية "لأننا لا نستطيع الإنحياز مع سوريا ضد عبدالناصر، ولا تجاهل شعارات دمشق. بل علينا مراعاة مطالب البلدين الأكثر تأثيراً على أوضاعنا الداخلية. لا نشارك في الحملات الإعلامية المتبادلة بين القاهرة ودمشق، ونمتنع عن أي خطوة أو نشاط معاد أو مضرّ بأحدهما".

قال أيضاً: "أعرف أن ليس من السهل ترجمة ذلك عملياً وسياسياً، ولا سيما عندما تتأزم الأوضاع وتتصاعد الحملات الإعلامية بينهما أو حتى بين عاصمتين عربيتين. ولكن هذا هو الإطار والقاعدة لتجنّب لبنان تداعيات المعارك والنزاعات العربية - العربية وتفادي انتقالها إلى لبنان"²⁰.

لم يحجب ذلك اقتراب الحكم اللبناني من مصر، من دون إنكاره فاعلية سوريا في التأثير السلبي في الوضع اللبناني. وأتت مساعدة الرئيس اللبناني الزعيم المصري على تهريب رئيس المجلس التنفيذي في الإقليم الشمالي (رئيس حكومة سوريا ما بين عامي 1960 و1961) عبدالحميد السراج من سجنه في دمشق خير معبر عن حجم العلاقة الوطيدة بين الشهابية والناصرية.

بعدما نقل سامي شرف، موفداً خاصاً من الرئيس المصري إلى نظيره اللبناني طلباً بذلك، تعاون جهازا الإستخبارات العسكرية اللبنانية والمصرية، وأعدّا خطة تهريبه من سجن المزة إلى لبنان، حيث اعتقله أركان حركة الانفصال على أنه الرمز الفجّ والمتوحش لحكم جمال عبدالناصر على سوريا. تعهّد الأخير لفؤاد شهاب سرّية المهمة وتطمينه إلى وقوفه إلى جانب لبنان في حال تعرّض لمضايقات النظام السوري الجديد من جرائها. وبإشراف عبدالحميد غالب، أنجزت خطة تهريب عبدالحميد السراج الذي كان عيّن في 15 آب 1961 نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة.

ليل 18 أيار 1962 نفذت خطة الفرار بمساعدة جندي سوري نامصري كان قد جنّده عبدالحميد السراج سابقاً مخبراً لديه هو منصور الرواشدة. تواطأ مع الإستخبارات المصرية، فأوصل عبدالحميد السراج إلى دير العشائر عبر جرود وعرة تتداخل فيها الحدود السورية بالحدود اللبنانية في بلدة حلوة البقاعية. كان كمال جنبلاط أتى بجمال استعان بها عبدالحميد السراج لاجتياز الحدود حتى دخل الأراضي اللبنانية. بات ليلته في راشيا في منزل شبلي العريان الذي نقله صباحاً إلى حماية كمال جنبلاط في قصر المختارة، قبل تسليمه مجدداً إلى الشعبة الثانية التي تولت نقله إلى منزل مسؤول الإستخبارات المصرية في السفارة محمد نسيم في الروشة. ومنه إلى مطار بيروت في سيارة جيب

²⁰ - ينقل الدكتور باسم الجسر عن الرئيس فؤاد شهاب هذا الموقف رداً على سؤاله له عن موقع لبنان في الخلاف السوري - المصري (من كلمة باسم الجسر عن السياسة الخارجية في عهد الرئيس فؤاد شهاب، في ندوة حول "الفكر السياسي والاجتماعي للرئيس فؤاد شهاب"، في 23 تشرين الأول 2003 في قصر الأونيسكو).

ومذ أقام عبدالحميد السراج في مصر نهائياً ونال الجنسية، أضحى عبدالحميد غالب وحده صاحب الكلمة الفصل في علاقة الناصرية بلبنان.

غداة تهريبه، أعلن في بيروت في بيان مقتضب أن عبدالحميد السراج سافر إلى القاهرة من طريق السفارة في بيروت، بعد وصوله إلى لبنان بشكل عادي عبر الحدود مع سوريا. قدّر جمال عبدالناصر لفؤاد شهاب مساعدته له على إنقاذ رجله القويّ في سوريا، وظلّ لسنوات يأتي على ذكر هذه الحادثة بامتنان، ويستجيب كل ما كان يطلبه منه الرئيس اللبناني. كذلك أوعز الأخير إلى الإستخبارات العسكرية اللبنانية، بعد ساعات من وقوع الانفصال، مساعدة الضباط والجنود المصريين الذين فرّوا من سوريا على تأمين حمايتهم في لبنان، واتخاذ إجراءات سفرهم إلى بلادهم بالتفاهم مع السفارة في بيروت.

كان الزعيم المصري سرّاً اجتذاب المسلمين اللبنانيين إلى موالاة الحكم الشهابي، مما حثّم على رئيس الجمهورية التعامل معه على أنه رئيس لسوريا المجاورة للبنان والمتداخلة حدودها ونفوذها فيه، أكثر منه رئيساً لمصر البعيدة عن الحدود اللبنانية. كان يعرف فاعلية تأثير نظيره المصري على الناصريين اللبنانيين، مدركاً في الوقت نفسه الآثار السلبية والخطيرة على الإستقرار الداخلي والوحدة الوطنية التي كان قد خلفها تدخّل سوريا في الشؤون اللبنانية عبر رئيس الشعبة الثانية فيها منذ شباط 1955 العقيد عبدالحميد السراج، وتحريضه معارضي كميل شمعون على العصيان والثورة عليه وإحداث اضطرابات وقلقل أمنية. لم يكن الرئيس يكتفم قلقه ومخاوفه من المطامع التاريخية لسوريا في لبنان بقوله لمعاونيه: "هؤلاء قادرون على إغلاق البوابة دوننا سواء أحببناهم أم لا. لذلك ينبغي أن نكون على ودّ معهم"²².

استعادت علاقات فؤاد شهاب بسوريا، بل برئيسها جمال عبدالناصر، تقليداً كان خبره قبله سلفاه اللذان شهدا، في مطلع عهديهما، استقراراً لافتاً مع دمشق مثلته علاقة بشارة الخوري بشكري القوتلي (1943 - 1949)، وكميل شمعون بأديب الشيشكلي (1952 - 1954). لكل منهما دور في تعزيز سلطة الرئيسين اللبنانيين. كان تجديد انتخاب شكري القوتلي رئيساً لسوريا عام 1948 في صلب مبررات تجديد ولاية صديقه الشيخ بشارة، ولعب أديب الشيشكلي بدوره عام 1952 دوراً مؤثراً في انتخاب صديقه الصياد كميل شمعون. على أن الانقلابات العسكرية المتعاقبة في سوريا وضعت هذه وجهاً لوجه مع لبنان: عندما أطاح حسني الزعيم عام 1949 شكري القوتلي، وعندما عاد هذا الأخير إلى السلطة عام 1955 قبل أن يسلم بعد ثلاث سنوات حكم سوريا إلى جمال عبدالناصر. على نحو مماثل ساد علاقة فؤاد شهاب بالزعيم المصري استقرار في العلاقات اللبنانية - السورية بعد اجتماع الخيمة سرعان ما انهار مع تفككها. وهكذا كان قدر فؤاد شهاب، كقدر بشارة

21 - مقابلة خاصة مع اللواء سامي شرف الذي يصف خطة تهريب العقيد عبدالحميد السراج من سجنه في سوريا بأنها الإنجاز الأكثر أهمية في تعاون جهاز الاستخبارات العسكرية اللبنانية والمصرية في حقبة الجمهورية العربية المتحدة.

22 - مقابلة خاصة مع اللواء أحمد الحاج.

الخوري وكميل شمعون، أن يكون في مواجهة آثار صراع على السلطة داخل سوريا، لم تكن العلاقة مع البلد الصغير الجار في منأى عنه.

منذ الأشهر الأولى للعهد، في شباط 1959، لم ينجُ لبنان من استمرار ضغوط سوريا عليه بمعزل عن موقعها في الجمهورية العربية المتحدة. حمل ذلك حكومة رشيد كرامي على الإحتكام إلى جمال عبدالناصر دونما إغضاب دمشق. تسلّحت هذه بحجج وفيرة للتضييق على انتقال البضائع وتجارة الترانزيت وافتعال إغلاق الحدود وفرض إجراءات متشدّدة على حركة العبور، كان أبرزها تذرّعها بوجود معارضين سياسيين للجمهورية العربية المتحدة في لبنان تارة، وبمناوئين فارين اتخذوا منه موطئ قدم لإطلاق نشاطات معادية طوراً. وبين هؤلاء سياسيون أقصتهم جمهورية الوحدة عن مناصبهم، وضباط مسرّحون من الجيش السوري. شكى عبدالحميد السراج بدوره من لجوء مئات من الشيوعيين السوريين إلى لبنان للإعداد لخطط سرّية مناهضة، مطالباً بتسليمه إياهم أو ترحيلهم عن لبنان. ولم تتردّد الأجهزة الأمنية اللبنانية - تأكيداً لرغبتها في التعاون - في تعقب بعض هؤلاء وتيقنّها في 24 حزيران 1961 من وجود 300 منهم أدرجت أسماءهم في لوائح رسمية. كان على دمشق أن تعلن أنهم جميعاً يعملون للإنتقال على الجمهورية العربية المتحدة تبريراً لتشيدها من إجراءاتها ضد جاراتها، فشمّلت أيضاً منع انتقال سوريين إليه أو إرغامهم على التزام قيود قاسية لإقامتهم فيه، وأحياناً اشتراط الحصول على تأشيرة دخول إليه أو مغادرته²³.

وفي محاولة منها لتفسير تسلل ضباط سوريين إلى لبنان دونما علم من السلطات اللبنانية، عزت دمشق تصرفها هذا إلى سعي استخباراتها العسكرية إلى مراقبة نشاطات المعارضين السوريين، بينما تحققت الشعبة الثانية اللبنانية أكثر من مرة من أن مهمتهم كانت مزدوجة: تعقب المعارضين السوريين، وفي الوقت نفسه جمع معلومات عن المعارضين اللبنانيين للجمهورية العربية المتحدة ولاسيما منهم الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني، إلى أفرقاء مسيحيين مناوئين كأحزاب بيار الجميل وريمون إده وكميل شمعون، والتأكد من الدور الخفيّ للإستخبارات الأردنية العامل بنشاط على الأراضي اللبنانية ضد الناصرية. وقد عدّته سوريا مشجعاً للمعارضين السوريين واللبنانيين على السواء²⁴.

مكث في صلب تلك الضغوط والقيود رفض دمشق ما كان يعتبره لبنان في صميم أسس نظامه، وهو حرّية الإقامة على أراضيه بما لا يتعارض وأحكام القانون والانتظام العام. حضّت باستمرار الأجهزة الأمنية اللبنانية، في لقاءات ثنائية، على اتخاذ تدابير تجميد منح سوريين حق اللجوء السياسي تحت وطأة تهديدها بإقفال الحدود. لم تفتنع، مراراً، بوجهة النظر اللبنانية القائلة بأن هؤلاء يخضعون لرقابة مستمرة من الشعبة الثانية والأمن العام تقادياً لتسليمهم إلى سلطات بلادهم، ما دام القانون اللبناني لا يأذن بذلك. ناهيك بإعلان السلطات الرسمية اللبنانية، السياسية والأمنية، خلافاً لوجهة النظر السورية، أنها لا تستطيع حظر دخولهم إلى لبنان كونها لا تجدهم متأمّرين أو يخططون للإنتقال على الجمهورية العربية المتحدة، وعلى سوريا خصوصاً، ولا تملك براهين على ذلك.

قالت أيضاً للسلطات السورية إنها لا ترى فيهم سوى عقائديين لا يزالون نشاطات سياسية عدائية ضد سوريا ومصر، ولا يحظون برعاية لبنانية رسمية تنم عن تشجيعهم على اللجوء إلى لبنان أو الإعداد لتقويض استقرار جمهورية الوحدة. أرفقت ذلك بتأكيد رئيس الشعبة الثانية العقيد أنطون سعد ومدير الأمن العام المقدّم توفيق جلوبوط لنظيريهما، في اجتماعات عدّة في دمشق وبيروت، سهر الأجهزة الأمنية اللبنانية على مراقبة الحدود منعاً للتسلل. وفي ظلّ حملات إعلامية تبادلت التشهير، تشبّث لبنان بمواقفه هذه، متيقناً من العين المراقبة لعبدالحميد غالب على مسار الأحداث في لبنان،

²³ - حمل ذلك وزير الأشغال العامة والنقل بيار الجميل، في 28 تشرين الأول 1959، على المطالبة بفتح قنصليتين لبنانيتين في دمشق وحلب لمعالجة المشكلات الحدودية بين البلدين، وتسهيل حركة انتقال الأشخاص وعبور البضائع إلى الداخل العربي ومنه.

²⁴ - مقابلة خاصة مع اللواء سامي الخطيب.

وعلى نقيض من عبدالحميد غالب، كان تصرّف عبدالحميد السراج صلفاً ومتوحّشاً. لا قعر لغضبه وردود فعله. بحكم مهنته ومراسه الطويل في الإستخبارات العسكرية، بات سرّه في ما يضمّر لا في ما يفصح ويكشف. متعطّش للسلطة والتعسف، وفي الوقت نفسه يريد أن يعرف كل ما يدور من حوله. لغزه المعلومات التي لم يكن يريد أن تتضب عن كل الناس، وأولهم القريبون منه والمحيطون بعمله. على قدم المساواة كان يجمع المعلومات عن خصومه وأعدائه وعن مؤيديه والمتملقين له، وكذلك معاونيه. يراقبهم ويتنصّت عليهم. بسبب ذلك جعل الهيبة - التي كان يستمدّها من القوة والتخويف أحياناً - والمعلومات في منزلة واحدة. إنهما قاعدتا الإستخبارات العسكرية. لم يحل وفاؤه لجمال عبدالناصر وولاؤه للجمهورية العربية المتحدة - وعقيدة الوحدة خصوصاً - دون معاملته لبنان انطلاقاً من حجج سورية بحتة. لم تُفض سلسلة المآخذ التي حملها ضباط الشعبة الثانية والوزراء اللبنانيون إلى الزعيم المصري، أو إلى سفيره في بيروت، إلى ضبط عنف الرجل. لم يكن الرئيس المصري يعتقد بأن عبدالحميد السراج يخطيء في كل تصرّفاته، وعزا بعض أخطائه إلى معاونيه المحيطين به. كمن إخلصه في رعونته وهو يلتزم السياسة الناصرية ويطبّقها على طريقته، متعلقاً في الوقت نفسه حيال لبنان بمشاعره كسوري يرفض الإعراف بالكيان الصغير المجاور، ولا يكفّ عن التدخّل في شؤونه دونما تسلّحه بذريعة. لم يكن يعوّض سلخ لبنان عن سوريا - كما نظرت الانقلابات العسكرية المتعاقبة في هذا البلد - إلا تجريده نهائياً من استقراره وتعريضه باستمرار لأزمات تفتّت كيانه تدريجاً. قدّر جمال عبدالناصر دائماً دور عبدالحميد السراج في سوريا ولبنان، وعده بلا تردّد "رجلاً مستقيماً"²⁵.

كان صعباً للزعيم المصري، في ظلّ النزاعات الداخلية والإنقسامات التي كانت تمزّق الجيش والمجتمع السياسي والحزبي في سوريا، عثوره على شخصية ملتزمة كعبدالحميد السراج وبعض الضباط والسياسيين السوريين الذين التصقوا بالناصرية، كجاسم علوان وجادو عزالدين وأكرم الديري. نبيه تكراراً إلى تصويب علاقته بالأجهزة الأمنية اللبنانية والتزام سياسة جمهورية الوحدة حيال لبنان. كان يستجيب بعض الوقت قبل أن يفاجيء معاوني الرئيس المصري باستعادة سلوكه السابق على نحو أشعر الأخير بأن عبدالحميد السراج، شأن أي مسؤول سوري نافذ أو يمسك بمصادر السلطة والفرص والعنف، لا يستطيع إلا أن يتصرّف بالطريقة نفسها التي ربّت فيه - وفي سواه - شعوراً جعله يقارب اليقين هو إنكار حقيقة الكيان اللبناني المستقل. كان الضابط السوري الكبير الفظ يعتقد بأنه على صواب، مقتنع بما يفعل²⁶.

أما عبد الحميد غالب فبدا نمطاً مختلفاً تماماً. سُمّي في أوساط السياسيين اللبنانيين ولاسيما منهم الناصريين، وكذلك في أوساط ضباط الشعبة الثانية، الباشا. لواء في الجيش يحمل في الغالب هذا اللقب. دخل السلك الدبلوماسي قبل أن يتقاعد. زاوج بين دماثة التصرّف والموقف الصارم. طغت عليه الحياة الأريستوقراطية والبذخ، وتميّز بقيافة الملابس والأناقة المفرطة وهو يدخل الصالونات السياسية والاجتماعية. شغوف بالسيكار وربطات العنق، وصاحب عقل منظم يرتب الأولويات قبل اتخاذ القرار. تصرّف على أنه أكثر من سفير، فمكّنه ذلك من أن يكون صاحب كلمة مسموعة لدى نصف اللبنانيين ومعظم المسلمين. لا يحجب حزمه شخصية استفزازية لمحاورها الذي يجد نفسه - وهو يحترمها - متأهباً للفور لاتخاذ موقف مناوئ لها. مع ذلك أفسح دائماً في علاقته بالآخرين

²⁵ - مقابلة خاصة مع اللواء سامي شرف الذي يُدرج توسّل سوريا العنف دائماً في علاقتها بلبنان في صلب طبيعة استخباراتها العسكرية ونظرتها إلى جارها، وترجيحها كفة القوة على استخدام الذكاء.

²⁶ - المصدر نفسه.

اختار لبنان طوال عامي 1959 و1960 الدفاع عن صدقية ردّ فعله بإزاء سوريا، والتساهل أحياناً إما بإبعاد معارضين سوريين لجأوا إليه كما حصل في 2 تشرين الثاني 1960، أو بكشفه بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ عن إقامة معتقل في جزين استأجره الأمن العام لاحتجاز المعارضين واللاجئين، غير المرضي عن نشاطاتهم على الأراضي اللبنانية والحوول دون استمرارها، أو الذين تسللوا إليها. وقد أقام عدد قليل منهم في هذا المعتقل ما لبثوا أن غادروا لبنان بعدما ساء لهم تقييد تحركاتهم. ومع أن حكومتي رشيد كرامي الأوليين (1958 و1959) كابدتا المشكلة بسبب ما أورثها إياه العهد المنصرم، والخلاف الحاد بين كميل شمعون وجمال عبدالناصر لسنوات خلت، وجدت حكومتا صائب سلام (1960 و1961) نفسها في خضم المواجهة مع سوريا ومصر في آن واحد، وقد طاولهما - ورئيسها خصوصاً - الإتهام بالتواطؤ ضد الجمهورية العربية المتحدة. كانت الحكومتان استجابتا، في أكثر من مناسبة، مطالب سورية باتخاذها إجراءات قيّدت اللجوء السياسي، وأصدر قرارتهما صائب سلام الذي كان في واجهة خلافات البلدين كونه وزيراً للداخلية أيضاً، فتلقى السهام مباشرة.

تجاوزاً لذلك، كان على حكومة رشيد كرامي التي خلفت حكومة الزعيم البيروتية توجيه رسائل اطمئنان إلى سوريا. في بيانها الوزاري أمام مجلس النواب في 16 تشرين الثاني 1961 - بعد شهر ونصف شهر من وقوع الانفصال في سوريا وانهايار الجمهورية العربية المتحدة - أكدت بلسان رئيسها "حرصنا على أن يبقى لبنان الجار الأمين لشقيقته الجمهورية العربية السورية وسائر أشقائه العرب، المقدرّ واجباته وحقوقه كدولة عربية، المجانب أي نوع من أنواع التدخل في شؤونهم الداخلية، محترماً تالياً أوضاع كل بلد ورغبات شعبه"²⁸.

بعد انفصال سوريا عن مصر عام 1961، تردّت علاقة لبنان بنظام الانقلاب الجديد بزعامه العقيد عبدالكريم النحلاوي²⁹، وبات أرضاً خصبة لصراع دولتي جمهورية الوحدة المتداعية. بعد مخاض سياسي مضمّن، اعترف الرئيس اللبناني بالحكم الجديد في سوريا، محترماً "إرادة سوريا في ما فعلت"، ومتوقّفاً في الوقت نفسه مرحلة صعبة من العلاقات اللبنانية - السورية³⁰. لم يكن الخيار سهلاً أمام فؤاد شهاب.

27 - استمر عبدالحميد غالب في منصبه سفيراً في لبنان حتى 8 كانون الثاني 1968 عندما عين نائباً لوزير الخارجية، فخلفه ابراهيم صبري الذي طبيعته شخصية مختلفة تماماً. دبلوماسي خرج من إدارة مدنية، كثير التعلق بالإيمان والشعائر الدينية.

28 - يوسف قزما خوري، *البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب*، ص 625.

29 - فجر 28 أيلول 1961 احتلت وحدات من حرس البادية مبنى القيادة العامة للجيش في ساحة الأمويين، وأخرى مدرّعة مبنى الإذاعة والتلفزيون، وأذاع ضباط الانقلاب بيانات باسم "اللجنة الثورية العربية العليا للقوات المسلحة" انتقدت تردي الأوضاع في سوريا، وقررت "القيام بتصحيح الوحدة من انحرافاتهما ووضع حدّ للتسلط المصري" بحسب ما أعلن البلاغ الرقم واحد. رفض الرئيس جمال عبدالناصر محاولة الانقلاب وحلّ الجمهورية العربية المتحدة، وعزم على قمعها بالقوة قبل أن يتيقن، في الساعات التالية، من أنها حركة انفصالية. أوقف إرسال قوات إلى اللادقية لضربها وسلم بإرادة سوريا في العودة إلى استقلالها وسيادتها. قاد الإنفصال الضباط عبدالكريم النحلاوي وحيدر الكزبري وفصيل الحسيني وعبدالغني الدهمان وموفق عصاصة ومحمد منصور وهيثم المهاني ومطبع السمان ومهيب الهندي وفايز الرفاعي. وخلافاً لما عرفه الشارع السوري عام 1958 عندما تظاهر للمناداة بالوحدة مع مصر، لم يشهد أي حركة شعبية تدافع عن استمرارها على أثر الانقلاب عليها.

30 - مقابلة خاصة مع اللواء أحمد الحاج.

غداة وقوع الانفصال، في 29 أيلول، أوقلت السلطات الحاكمة الحدود مع لبنان، وطلبت في الأول من تشرين الأول اعترافه بالنظام الجديد. تزيّنت حكومة صائب سلام بعدما رغبت في ربط الإعراف بتسوية العلاقات بين البلدين تحت وطأة تظاهرات شعبية حاشدة اجتاحت بيروت وطرابلس وصيدا مؤيدة جمال عبدالناصر وجمهورية الوحدة استمرت بضعة أيام، ضاعفت بدورها من غضب سوريا. كانت حكومة صائب سلام قد واجهت، في الوقت ذاته، انقساماً بين وزرائها، المتعاطفين مع الزعيم المصري والمعارضين له. قال بعضهم برفض الإعراف بالإنقلاب العسكري، وشجّع آخرون التسليم بالجمهورية السورية المستقلة. وهكذا، على نحو النزاع الذي كان قد نشب بين الزعماء اللبنانيين على الجمهورية العربية المتحدة ودورها في لبنان قبل سنوات، عزّز الانفصال الانقسام الوطني. استعمل صائب سلام الإعراف بنظام الانقلاب، ورفضه كمال جنبلاط، بينما حضّ بيار الجميل على استعجاله والإقرار بالواقع الجديد في سوريا³¹. كذلك كانت حال الأحزاب والقوى السياسية: أيد الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني النظام الجديد في سوريا شأن أحزاب بيار الجميل وكميل شمعون وريمون إده، وناهضه كمال جنبلاط وحزبه ورشيد كرامي وحزب التحرّر الوطني الذي يرئس وصبري حمادة³² وصائب سلام وزعماء آخرون عُدوا ناصريين. ولم يخرج بطريك الموارنة بولس المعوشي عن هذا التجاذب السياسي. هنا حكومة الانفصال قبل أن يستقبل في بكركي وفداً سورياً رفيعاً في 13 تشرين الثاني 1961 شاكراً له موقفه. بذلك غرق الأفرقاء اللبنانيون جميعاً في مستنقع الخلاف اللبناني - السوري.

كان الخلاف اللبناني من حول الرئيس قد ذهب بدوره إلى اختلاف الوزراء على قرار اتخذته حكومة صائب سلام، في 6 تشرين الأول، بتكليف الجيش وقوى الأمن الداخلي منع التظاهرات وقمعها بغية تخفيف مبررات استفزاز سوريا. في اليوم التالي أعاد لبنان فتح حدود كانت أوقلتها سوريا، في إشارة ضمنية إلى استعادة العلاقات الثنائية بدعوى أن لا حاجة إلى اعتراف رسمي بين البلدين. لم تقتنع دمشق، متمسكة باعتراف كامل يحترم الأصول التقليدية في التعامل بين دولتين. بيد أن جارها توخى بهذا المخرج تجنّب مزيد من الانقسام الداخلي حيال ما كان يجري في سوريا، وكذلك بإزاء العلاقة بها وبمصر، وتقديماً للانتقال بالنزاع من داخل السلطة الإجرائية إلى الشارع. ذهب الأمين العام لمجلس الوزراء ناظم عكاري إلى دمشق في 14 تشرين الأول حاملاً رسالة ودّية إلى رئيس حكومة الانفصال مأمون الكزبري من نظيره صائب سلام، بمثابة اعتراف بالنظام الجديد. تبعته في 25 تشرين الثاني زيارة وفد لبناني رسمي للعاصمة السورية لتهنئتها بأول انتخابات نيابية عامة في ظلّ الانفصال.

على أن التوتر في علاقات البلدين لم ينحسر، مع تصاعد نبرة الإتهامات الموجهة إلى السلطات اللبنانية بالقول إنها تستمر في حماية معارضين سوريين ناشطين ضد النظام السوري الجديد.

بعد حكومة صائب سلام واجهت حكومة رشيد كرامي المعضلة نفسها: سوء تفاهم مفتوح مع سوريا رغم التطمينات التي أوردتها في البيان الوزاري، ورغبتها في عدم التدخّل في شؤونها. على مرّ الأشهر التالية استمرت الحملات الإعلامية المتبادلة بين البلدين، ودخلت على خطها الصحف اللبنانية

³¹ - كان انفصال سوريا عن مصر مناسبة مهمة لبيار الجميل لتصفية حساب سياسي قديم مع الرئيس جمال عبدالناصر والتيار الناصري في لبنان منذ اندلاع "ثورة 1958". لشهور خلت قبل الانفصال، لم تتوقف إذاعات دمشق والقاهرة عن التهجّم بعنف على الزعيم المسيحي واتهامه بالتعامل مع إسرائيل، إلى حدّ تلويحه في 16 آب 1961 بالاستقالة من حكومة الرئيس صائب سلام ما لم تتضامن معه في مواجهة الحملات الإعلامية تلك. كان قد تعرّض كذلك، وحزب الكتائب، لحملة من الرئيس المصري متهماً إياه بالعمل ضد الجمهورية العربية المتحدة. وخلال يومين على التوالي في 24 شباط 1961 و25 منه - في ذكرى إعلان الوحدة - وصف الرئيس المصري من دمشق بيار الجميل بـ"المتآمر" على القومية العربية. فكان أن أبرق إليه كمال جنبلاط مؤيداً، ومطالباً بإقالة بيار الجميل والوزير الكتائبي الآخر مورييس الجميل من الحكومة.

³² - بذريعة أن اسمه مدرج في اللائحة السوداء كأحد المؤيدين للناصرية، منع الأمن العام السوري رئيس مجلس النواب صبري حمادة من عبور الحدود التركية - السورية في 20 تشرين الثاني 1962 في طريقه إلى لبنان، قبل أن يأذن له بذلك بعد اتصالات سياسية رفيعة المستوى.

33 وخالد العظم، اضطلع فيليب تقلا

بتكليف من فؤاد شهاب بدور المحاور مع دمشق، مؤكداً لها باستمرار تشبث لبنان بسياسته الخارجية القائمة على الحياد في النزاعات الإقليمية وعلى إرساء علاقة صداقة مع الدول العربية³⁴. لم يُبد بشير العظمة (1962) وخالد العظم (1962 - 1963) مرونة لإجراء حوار بين البلدين. التقيا دائماً على وصف الأرض اللبنانية بأنها منطلق للتأمر على جارتها. بل ذهب خالد العظم، في موقف غير مسبوق لتبرير المواجهة بين حكومته ولبنان في 26 شباط 1963، إلى القول إن ما يعني سوريا هو السياسة الداخلية للبنان لا سياسته الخارجية. وجدها تهدد أمن سوريا وسلامتها.

كان على رئيس الجمهورية عندئذ مواجهة حقيقة إضافية، هي التنبه إلى خطر حتمي على الاستقرار اللبناني ما لم يتبنّ معادلة سياسية جديدة، دقيقة وحساسة، تأخذ في الاعتبار وجود سوريا عند الحدود الشرقية للبنان، دونما التخلي عن التحالف مع جمال عبدالناصر. وهكذا اختار أن يجهد من أجل إنقاذ هذا الاستقرار وتأكيد أولوية علاقة ودّية مع دمشق. في مسعاه لإجراء اتصال بعبدالكريم النحلاوي في الأيام الأولى من حركة الانفصال، رغب في توجيه رسالة إليه هي "إنني عندما اجتمعت بالرئيس عبدالناصر في الخيمة عند الحدود، كنت ألتقيه رئيساً لسوريا وليس رئيساً لمصر. حدودنا مع سوريا طويلة وعلاقتنا بها عميقة. هناك سوريا والبحر وإسرائيل. لذلك عليه الكفّ عن التهجّم علينا. ليس في وسعي شتم عبدالناصر ولا التنكّر له، لأن أكثر من نصف البلد معه. فلا تطلبوا منا أكثر مما نقدر عليه"³⁵.

لم تكن تلك المرة الأولى يولي فؤاد شهاب انتباهاً خاصاً إلى مراعاة الجوار السوري. عام 1959، في ظلّ جمهورية الوحدة وتحالفه مع الناصرية، رَسَم لرئيس الفرع العسكري في الشعبة الثانية الملازم أول غابي لحود ملامح علاقة يريدها للبنان مع جارتها.

قلّب امامه خريطة كبيرة للبنان ودلّ على الحدود البرية الطويلة مع سوريا، وقال: "أريدك يا بني أن تكون حريصاً وواعياً لعلاقتنا مع سوريا وعدم إغضابها. ينبغي أن نفعل ما يمكن أن نداريها به في التعامل معها. لذلك أطلب منك أن تعتبر نفسك سفيراً لسوريا في لبنان، أي أن لسوريا سفيراً عندنا هنا هو أنت. لدينا سفير لمصر وسائر الدول. أنت سفير سوريا. ما أطلبه ليس ان تقول لي ماذا تريد من السوريين، بل ما يريدونه هم منا. نحن نعرف ماذا نريد منهم، ولا ندرك ماذا يتوخّون منا؟ السياسيون اللبنانيون كالشيخ بيار (الجميل) يقولون لي ما يريدون من سوريا. لكن ماذا تريد هي؟".

أضاف الرئيس: "أنظر إلى حدودنا معها من الشمال إلى الجنوب. نحن بين سوريا وإسرائيل والبحر. حدود طويلة جداً. بسببها لا نستطيع الاختلاف معها. بصفتك ضابطاً في الشعبة الثانية، هناك زملاء لك في الشعبة الثانية السورية مسؤولون عن الموضوع نفسه مع لبنان، فاتصل بهم. اجتمع بهم. بيننا

33 - دخل رئيس الحكومة السورية بشير العظمة في سجل مع الرئيس رشيد كرامي عندما أعلن في الأول من آب 1962 عزمه على إقامة علاقات دبلوماسية مع لبنان لمواجهة ما عدّه التمثيل الدبلوماسي الضخم بين بيروت والقاهرة. ردّ نظيره اللبناني بمعارضة الإقتراح لنلا يتحوّل لبنان حلبة صراع بين سوريا ومصر. في 9 آب عاود بشير العظمة تأكيد الطلب حفاظاً على تحقيق المصالح المشتركة بين البلدين، وكذلك أمن سوريا. ولاحظ وجود 130 موظفاً في سفارة مصر في بيروت.

34 - إلى فيليب تقلا (1960 - 1964)، ترأس الدبلوماسية اللبنانية في عهد الرئيس فؤاد شهاب وزيران أخران للخارجية هما حسين العويني (1958 - 1960) وفؤاد عمون (1964).

35 - حوار دار بين الرئيس والملازم أول في الشعبة الثانية سامي الخطيب الذي عُهد إليه في إجراء اتصال بالعقيد عبدالكريم النحلاوي، رفيق دراسته القديم في دمشق منذ عام 1947 (مقابلة خاصة مع اللواء سامي الخطيب).

كمنت مشكلة الرئيس أيضاً، بعدما انتقلت السلطة في سوريا في الأشهر التالية من يد الجيش إلى المدنيين وانتخاب رئيس لها، أن وجهة نظرها حيال لبنان لا تزال إياها، مشحونة بأحكام مسبقة وتوتر وتشج وبشروط مستعصية على الإستجابة. وجد نفسه مرغماً على الإعتراف بالنظام السوري الجديد فيما حليفه جمال عبدالناصر يأبى التسليم به والإعتراف بالشرعية المنبثقة منه، ويثابر على محاصرته إعلامياً وديبلوماسياً بتشديد الضغوط لإبقاء سوريا في عزلة تتخبط في صراع على السلطة في داخلها، وتنفتى فيها الفوضى عبر مؤيدين للزعيم المصري من التيارات الناصرية والقومية العاملة فيها.

ولأنهم عدّوه حليفاً لجمال عبدالناصر، لم يثق قادة الإنفصال بفؤاد شهاب، فصار خلافهم مع لبنان جزءاً لا يتجزأ من النزاع مع مصر. هاجمت الإذاعة والصحف السورية لبنان واعتبرته امتداداً لجمال عبدالناصر في ظلّ انقطاع للإتصالات بين البلدين.

وما خلا اللقاء الوحيد بجمال عبد الناصر رئيساً لسوريا ومصر (1958 - 1961)، لم يلتق فؤاد شهاب أياً من رؤساء سوريا المتناوبين على حكمها في المرحلة التالية³⁷. كان ناظم القدسي أطولهم عهداً منذ أول انتخابات رئاسية بعد الإنفصال في 18 كانون الأول 1961، ملازماً منصبه من 14 كانون الأول 1961 حتى 8 آذار 1963. سبقه إلى المنصب في ولايتين قصيرتين مأمون الكزبري لأسابيع ما بين 29 أيلول و20 تشرين الثاني 1961، وعزّت أنوس الذي تولى الرئاسة يوماً واحداً في 14 كانون الأول 1961. لم يحل ذلك دون تبادل فؤاد شهاب وناظم القدسي مكالمات هاتفية من حين إلى آخر عامي 1961 و1962 في أوضاع البلدين. الأمر نفسه في ظلّ حكم حزب البعث لسوريا، وكان قد ترأسها لؤي الأتاسي لأشهر ما بين 9 آذار و27 تموز 1963، ثم أمين الحافظ منذ 27 تموز 1963 إلى ما بعد انقضاء ولاية فؤاد شهاب.

لم تكن الحال أفضل في علاقة لبنان بالنظام الجديد لسوريا على أثر الإنقلاب الجديد الذي قام به، في 8 آذار 1963، حزب البعث وأحكم قبضته عليها. كان ردّ فعله منفتحاً على بضع إشارات أرسلها قادة البعث إلى جمال عبدالناصر لإعادة إحياء الجمهورية العربية المتحدة، عدّها المسؤولون اللبنانيون انتقالاً مهماً من التوتر الذي طبع العلاقات السورية - اللبنانية والسورية - المصرية إلى تفاهم. رحب رشيد كرامي بانقلاب حزب البعث غداة حدوثه، 9 آذار، وعبر عن ارتياحه في الأشهر التالية إلى مناقشات مصرية - سورية - عراقية لإقامة دولة وحدة إتحادية تبعث الروح في الجمهورية العربية المتحدة. فكان أن أبرق فؤاد شهاب في 19 نيسان إلى رؤساء الدول الثلاث بعد توقيعهم اتفاق الوحدة. لم يدم هذا التحول طويلاً. في الأيام الأولى من الإنقلاب أقلت الحدود السورية - اللبنانية في 15 نيسان لمبررات اعتبرتها دمشق أمنية. ثم استعاد قادة الإنقلاب النيرة السابقة لأسلافهم في توجيه الاتهامات إلى لبنان بأنه يأوي معارضين ويحميهم، رغم أن الأخير - متمسكاً بما يحظره القانون وهو رفض تسليم ناشطين سوريين معارضين إلى سلطات بلادهم - اتخذ في 27 تموز إجراء قضى بمنع إعطاء اللجوء السياسي لسوري يدخل الأراضي اللبنانية بطريقة غير مشروعة، ناهيك بمنع ممارسة نشاط سياسي مناوئ بالتزامن مع تشديد المراقبة عند الحدود بين البلدين. لم تصمد الدولة الإتحادية

³⁶ - مقابلة خاصة مع العميد غابي لحدود.

³⁷ - شهدت ولاية الرئيس فؤاد شهاب في سنواتها الست سلسلة انقلابات عسكرية ضربت سوريا. وبعد ثلاث سنوات ونصف سنة من عمر جمهورية الوحدة بين مصر وسوريا، تعاقبت ثلاثة انقلابات عسكرية على الأخيرة: حركة الإنفصال في 28 أيلول 1961، ومحاولة انقلاب في 28 آذار 1962 عُرفت بحركة حمص نشأت عن خلافات بين ضباط الجيش بين مناد بالعودة إلى الوحدة مع مصر ورافض لها أدت إلى اشتباكات دامية واقتتال داخل الجيش، أجبرت الرئيس السوري ناظم القدسي على الإستقالة قبل أن يتم التوصل إلى اتفاق يغادر بموجبه ضباط الإنقلاب سوريا ويعود الرئيس ناظم القدسي إلى منصبه في 13 نيسان. ثم كان انقلاب حزب البعث ووصوله إلى السلطة في 8 آذار 1963.

ظلّ الزعماء المسلمون اللبنانيون كرشيد كرامي وصائب سلام وصبري حمادة وحسين العويني وكمال جنبلاط³⁸ أقرب إلى جمال عبدالناصر منهم إلى حزب البعث، ولم يتقبّلوا حملات الإذاعة السورية وصحفها على الإعلام اللبناني، ولم يروا كذلك دوافع العودة إلى اتهام لبنان بتحريك مؤامرات على أرضه ضد النظام السوري تارة، وبرعاية مخيمات تدريب ناصريين للقيام بأعمال تخريبية تستهدف نظام حزب البعث طوراً. ولم تتردّد دمشق في 23 أيلول في توجيه تهديد باحتمال اختراق الحدود رداً على وجود المخيمات تلك. دافع لبنان عن حرّية صحافته من غير أن يسعه منع الجرائد اللبنانية، القريبة من الناصرية، من مواصلة حملاتها على نظام حزب البعث. كانت الحجة نفسها منذ اندلاع النزاع مع رجال الإنفصال قبل سنوات: للصحافة اللبنانية حرّيتها في التعبير ما لم تنتهك القانون، أو تسيء إلى رئيس دولة عربية.

في سنة ونصف سنة من علاقة نظام البعث بحكم فؤاد شهاب، كانت اجتماعات مسؤولي البلدين قليلة. اكتفى معظمها بموظفين ومسؤولين عسكريين وأمنيين كانوا يناقشون مواضيع حدودية أو اضطرابات أمنية أو ملفات ذات طابع اقتصادي محدود لم تتجاوزها إلا نادراً لقاءات وزيري الاقتصاد رفيق نجا وجورج طعمة مرتين في 9 تموز و21 أيلول 1963، والخارجية فيليب تقلا وحسن مريود في 20 آذار 1964. إلى أن التقى، قبل ثلاثة أشهر من نهاية ولاية فؤاد شهاب، وللمرة الأولى، رئيسا الحكومتين حسين العويني وصالح البيطار في مطلع تموز 1964 بغية تحسين العلاقات الثنائية ومعاودة حوار جدّي. كان الإجتماع الأرفع مستوى بين الدولتين بعد وصول حزب البعث إلى السلطة. فلم يُسجّل آنذاك اتصال مباشر بين الرئيس اللبناني ونظيره السوري، ولا بين رشيد كرامي سلف حسين العويني ونظيره السوري.

³⁸ - رفض وزير الداخلية كمال جنبلاط في الأول من آب 1963 الترخيص لحزب البعث القيام بنشاطات سياسية وعقائدية في لبنان، وعزا قرار الحظر إلى الحفاظ على الأراضي اللبنانية من كل صراع عقائدي.